

المرأة وهاجس التمرد في الرواية النسوية التونسية المعاصرة

رواية " نخب الحياة " لآمال مختار أنموذجا

Woman and the foreboding of rebellion in the contemporary Tunisian feminist novel " Nakhab al Hayat" by Amal Mukhtar as a model

إلهام سناني* ، جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة، llham. Senani@yahoo.com

2022-10-24	تاريخ القبول	2021-03-09	تاريخ الاستلام
------------	--------------	------------	----------------

ملخص

تعد الكتابة النسوية ظاهرة أدبية حازت على اهتمام القراء والنقاد والباحثين لتصبح إشكالية جدلية داخل الوسط الثقافي والأدبي العربي. ومن أهم الموضوعات التي شكلت المتن الحكائي في الرواية النسوية العربية موضوعة المرأة، لذا نهدف من خلال دراستنا إلى البحث في ظاهرة التمرد عند المرأة في الرواية النسوية التونسية المعاصرة. يعتبر موضوع المرأة من أهم التيمات التي تناولتها الرواية التونسية، حيث تناولتها من الجوانب المختلفة السياسية الفكرية النفسية الاجتماعية بطرق فنية راقية تتأسس على أشكال من المكاشفة والاعترافات الصامتة التي يتدخل فيها الواقعي المتخيل الحقيقي والحلمي. وقد وقع اختياري على أحد أهم المؤلفات التونسية الروائية وهي "رواية نخب الحياة" للكاتبة "آمال مختار" التي تتناول صورة المرأة الشرقية المتمردة التي ثارت على كل عاداتها وتقاليدها وقيمها الشرقية لتختار الهجرة إلى عالم آخر بحريته ومدنيته التي تتناقض والحضارة الشرقية المحافظة، منساقا وراء أحلام لا تنتهي حول وهم الحرية المطلقة، تاركة وراءها عالمها الشرقي وكل ذكرياتها.

كلمات مفتاحية: المرأة؛ الهجرة؛ الحرية؛ الجسد؛ التمرد.

Abstract

Feminist writing is a literary phenomenon that attracts the attention of readers, critics and researchers, to become a controversial problem within the Arab cultural and literary milieu, and one of the most important topics that formed the narrative body in the Arab feminist novel is the issue of women. Therefore, we seek, through our study, to research the phenomenon of women's rebellion in the contemporary Tunisian novel. The woman's talk is one of the most important topics dealt with in the Tunisian feminist novel, as it dealt with various political, intellectual, psychological and social aspects in sophisticated artistic ways. High artistic methods based on forms of disclosure and silent confessions in which the real, imagined, and the dreamer intervene. My choice signed on one of the Tunisian reating, and novel of Nukhab al-Hayat by Amal Mokhtar, which dealt with the image of the rebellious eastern woman who revolted against all the customs, traditions and eastern values to choose emigration to another world with its freedom and civilization that contradicts the conservative eastern civilization, chasing after endless dreams about the illusion of absolute freedom leaving behind its eastern world with all its memories.

Keywords: woman; immigration; freedom; body; rebellion.

* المؤلف المراسل

تقديم

لقد أتاحت الكتابة النسوية ما يمكن أن نسميه بالجرأة على البوح وإمكانية الاطلاع على عوالم المسكوت عنه في مجتمع ذكوري بحت، حيث كشفت عن الأفكار السيئة التي يمارسها هذا المجتمع على المرأة، فكانت الكتابة الملاذ السهل والوحيد لحرية التعبير دون خوف أو خضوع، والوسيلة المثلى للكشف عن كل ما هو محظور وممنوع بلغة راقية وأسلوب جميل ينم عن القدرات العالية التي تمتلكها المرأة في مجال الأدب، فكانت التجربة الذاتية القابعة تحت الظروف القاسية والمفروضة عليها آلة تصوير لذلك المجتمع الذكوري القامع ما جعل كتابتها مليئة بالمحظورات، وهذا ما يسهم في تشكيل خصوصية أسلوبية وموضوعية في كتابتها تحاول من خلالها التحرر من غربة الأمس ومن هموم أثقلت كاهل المرأة، فتحدثت الصعاب والوجود واقتربت الخطأ والممنوع في سبيل تحقيق ما تؤمن به وتمنائه، بل واعتبرته رهانا وجب عليها ربحه بشتى الطرق، فكتابة المرأة هي تحرر ثقافي ونمو لوعي يسمح لها بالتمتع والمساواة وكسر تلك التبعية للرجل، وذلك من خلال إبداعها في الشعر والرواية و القصة، لذلك هو تحرير أنوثة محروقة تائهة ضعيفة تشعر بالضياع مكسورة الجناح في مجتمع يشوبه الارتباك، ولا سبيل للهروب من جحيم العيش بين أحضان التخلف والتميز إلا الرحيل.

كما يعد حديث المرأة من أهم التيمات التي تناولتها الرواية النسوية التونسية، حيث تناولتها من الجوانب المختلفة السياسية والفكرية والنفسية والاجتماعية بطرق فنية راقية تتأسس على أشكال من المكاشفة والاعترافات الصامتة التي يتدخل فيها الواقعي والمتخيل الحقيقي والحلمي.

وقد وقع اختياري على أحد أهم المؤلفات التونسية الروائية وهي "رواية نخب الحياة" للكاتبة "آمال مختار" التي تتناول صورة المرأة الشرقية المتمردة التي ثارت على كل عاداتها وتقاليدها وقيمها الشرقية لتختار الهجرة إلى عالم آخر بحريته ومدنيته التي تتناقض والحضارة الشرقية المحافظة، منساقا وراء أحلام لا تنتهي حول وهم الحرية المطلقة، تاركة وراءها عالمها الشرقي وكل ذكرياتها، ومن أهم العناصر التي سنتناولها في هذه الدراسة:

- 1 - تجربة التمرد في الرواية النسوية العربية المعاصرة
- 2 - المرأة وهاجس التمرد والبحث عن الحرية المطلقة
- 3 - المرأة المتمردة بين السلطة المجتمعية والرغبة الشبقية للجسد
- 4 - المرأة وفشل تجربة التمرد

1 - تجربة التمرد في الرواية النسوية العربية المعاصرة

لقد سعت المرأة إلى التعبير عن ذاتها لتعلن عن حضورها في مواجهة الأنماط الذكورية التي مارست عليها سلطة الإلغاء والتغيب زمتا طويلا، ومن ثمة كان لزاما عليها أن تثور على المألوف، وتقفز على الجاهز، وتخرق تلك الطابوهات التي تحاصرها من كل جانب لتصبح الكتابة عندها " رفضا للسائد، وثورة عليه وتجاوزا للمحظورات التي حالت دون ممارستها لحقها الإبداعي " (بن السائح:2011م، ص13). وقد شق الفكر النسوي طريقه إلى مجال الإبداع الأدبي، فكان أن نتج عن ذلك نظرية جديدة

في فضاء الأدب هي الكتابة النسوية (مناصرة، 2007م: ص1) وقد استطاعت هذه الأخيرة أن تغدو مرايا سردية تمكن أفق التلقي من رصد ملامح الأنا الأنثوية وتفاصيل عالمها وطبيعة طقوسها إبان اغترابها عن الآخر، أو لحظة نشوتها بحضورها وزهورها لاستقدامه، ليكون ذلك البوح المتقدم مرايا نرسيية جديدة تمنح مخيال المتلقي ساحة تأمل أناة واكتشاف ذاته (الصائع، 2008 م: ص45).

وقد برزت في الوطن العربي عدة روائيات اتخذت من قضية تمرد المرأة محورا أساسيا في طروحاتهن ليعبرن من خلالها عن واقع الأنثى الحاملة لشعار الحرية والتحرر من سلطة الخضوع للرجل، ومحاولة إثبات الذات ومواجهة العالم، فالكاتبة نوال السعداوي تعد من أبرز الشخصيات الثقافية التي اتخذت من نزعتها النسوية موضوعا لكتاباتهما، حيث صبت فيها كل ما تحمله نفسها من ثورة و تمرد على المجتمع الذكوري فهي تسعى من خلال كتاباتها وإبداعاتها الروائية إلى " تحرير النساء من القهر الجنسي والاقتصادي والسياسي والاجتماعي والتي تعتمد على التجارب التاريخية الإنسانية السابقة للعبودية في الحضارات القديمة...هي نظريات تبحث في التاريخ عن جذور العبودية والقهر الذي وقع على النساء والعبيد (السعداوي، د،ت) : ص223)، أما غادة السمان فطرحت قضية المرأة المتمردة على المجتمع بالرغم من تركيزها على التفاصيل التي تتعلق بالتشكيل الحيوي للهوية الأنثوية، فإن صبغة التمرد تكاد تنسحب على مجمل رواياتها، التي تؤكد الوضع البائس الذي تعيشه المرأة، فكانت كل نصوصها" مشحونة بالاحتجاج والرفض لوضع المرأة العربية المتخلف في مجتمعات تكرر سلطة الرجل وتستلب وجود المرأة وكيانها " (بوشوشة، 2003: ص 15) كما برزت عديد الأصوات الروائية النسوية التي تدعو إلى ضرورة تحرير المرأة والاعتراف بمكانتها أمثال عالية ممدوح ولطيفة الدليمي وفاطمة المرينسي وأحلام مستغانمي وآمال مختار

2- المرأة وهاجس التمرد والبحث عن الحرية المطلقة

تتناول رواية نخب الحياة لآمال مختار صورة المرأة الشرقية المغتربة التي ثارت على كل عاداتها وتقاليدها وقيمها الشرقية لتختار الهجرة إلى عالم آخر بحريته ومدنيته التي تتناقض والحضارة الشرقية المحافظة.

تجسد بطلة الرواية "سوسن عبد الله" صورة المرأة الثائرة المتمردة التي تسعى إلى تحقيق ذاتها ووجودها، ورأت أن ذلك لن يتحقق إلا في حضارة الآخر (ألمانيا) «هناك في مدينة الهدوء والخضرة والجمال وقانون الطبيعة سيد النفس، سأسير كما كنت أفعل قديما سأسير وأسير حتى تتعب قدمي، أخلع حذائي وأواصل السير على الأسفلت المبلول"(مختار،2005: ص13).

ترحل سوسن إلى الغرب وبالتحديد إلى مدينة بون بألمانيا منساقا وراء أحلام لا تنتهي حول وهم الحرية المطلقة، تاركة وراءها عالمها الشرقي وكل ذكرياتها وخاصة ذكريات حبيبها إبراهيم. تقول سوسن: " كان يجب أن أخوض التجربة بعيدا عن "هنا" الذي أصبح الآن "هناك" كان يجب أن أكتشف العالم على ظهر السفر والصدفة»(مختار،2005: ص17).

لقد بدت الغربية بالنسبة لسوسن عبد الله قبل الهجرة "رحلة الخلاص أو الهروب بحثاً عن اكتشاف صورة الذات في " الآخر الخارجي" بعد أن غطاها وحجبها الآخر الداخلي المهيمن مرة باسم " الأخلاق الأصيلة" ومرة باسم " الدين" (درج وآخرون، 1999: ص76).

كانت سوسن ترى في مدينة بون فضاء للتححر من الرقابة الأخلاقية، هناك تستطيع أن تمارس فعل المتعة كيفما تشاء ومع من تشاء قائلة: " أيها العصفور الليلة سأعيدك، فابحث عن الحب والماء بنفسك، انطلق في الخلاء، قف شامخاً على قمم الأشجار والجبال، اقترب من الآلهة وغن لها، سترد بالغناء، تنفس رائحة الغابة، تدثر بأوراق الأشجار، واسترح من المتعة قليلاً لتعاود الطيران في فجر جديد" (مختار، 2005: ص09).

لقد كانت سوسن نموذجاً مخالفاً لكل ما تطمح إليه كل امرأة عربية، فكل امرأة سوية تسعى إلى " إقامة علاقة متكافئة مع من تحب، تحافظ من خلالها على إنسانيتها وكرامتها، علاقة تمنحها الحب الحقيقي، وتمهد الطريق أمامها للزواج وإنشاء الأسرة وتحقيق الاستقرار" (رضوان طوطح، 2006: ص103).

لكن نجد سوسن عبد الله امرأة من النوع المتمرد المنفلت الذي يسعى وراء اللذة، فهي ترى في الزواج عبئاً ثقيلاً يحد من حريتها وجنونها وطموحاتها التي لا تنتهي. تقول سوسن لحبيبها إبراهيم: " لننطلق في رحلتنا من بون إنها أول مدينة عرفتها بعد تونس، ثم لنته في الجغرافيا والتاريخ نغمق في تجربتنا الإنسانية في الوجود.

كل ما سيحدث، وكيفما كان، سيكون ممتعاً فقط لأنه سيكسر العادة ويعدم الملل...ومتى نتزوج ونبني بيتاً ونجب طفلاً؟" (مختار، 2005: ص ص17، 18).

يرفض إبراهيم الرحيل إلى الغرب لمواصلة رحلة المجون، كما أنه يطلب منها أن تتخلى عن هذه الأفكار الخيالية، وتلك الرومانسية الحاملة، وتنظر للحياة من زاوية أخرى من خلال الزواج وإنجاب الأطفال.

لقد أدركت سوسن عبد الله أن إبراهيم عاجز أن يكون معها في رحلتها الوجودية الحسية، فهو رجل "عاجز عن فعل الامتلاء منشد إلى رتبة الحياة وسننها التي تتمثل في الزواج والأسرة والعمل" (فعاليات منتدى الروائيين العرب، 2005م: 66). والتمتع بجسد المرأة بعيداً عن أعين الناس "كنت أعرف أنه لا يحب السباحة ليلاً، كما لا يحب المغامرة، وكنت أستفزه دائماً من أجل ذلك، بعد مقاومة لا تنتهي بأن يحلق بي ليعيدني إلى الشاطئ ما إن نقرب من الرمل حتى يتركني قائلاً:

كفي جنونا، البسي ولنذهب

وأهمس - ساعدني، إنني متعبة

يعود للاقتراب بحذر ويظل يردد هامساً

أسرعي، أسرعي، أرى أشباحاً قادمة" (مختار، 2005: 36).

تحاول سوسن عبد الله أن تمارس تجربة وجود جديدة، لتحقق فيها اكتمال الذات من خلال عتق كل من الروح والجسد، وتكون بذلك سبيلها إلى تجاوز حال الخمول والتكلس التي علت كيانها، وإلى اكتشاف الجوهر في الإنسان (بوشوشة، 2009: 57، 56).

وهو ما تفصح عنه سوسن بقولها: " كان يجب أن أتسكع ... أن أكتشف حقيقة الإنسان، طبيعته التي تخفت تحت أشلاء الملابس والثقافة والقانون.

القانون الذي يحب ويكره ويختار ويقرر، ويرسم قضبان الواجبات والحقوق، ويتسلى بلغة الظلم والعدل " (مختار، 17:2005).

تسافر سوسن عبد الله إلى بون في ألمانيا حيث لا تعرف لغة أحد هناك، لكي تقيم طقوس الحرية المفقودة للفتاة العربية، إضافة إلى أنها لا تمتلك مالا تسدد به ثمن سانديوتش أو أجرة المبيت في الفندق الرخيص الذي تقيم فيه، فهي لا تمتلك سوى إصرارها على اختيار التجربة (أبو نضال، 103:2004).

وعلى الرغم من تحقيق حلمها والعيش في مدينة بون حيث لا تعرف أحدا، والفرصة متاحة لكي تقيم كل طقوس الحرية المفقودة بالنسبة إليها، غير أنها تبقى مرتبطة بماضيها، بذكرات وطنها خاصة بمشاعرها اتجاه إبراهيم؛ فيحول ذلك دون ممارسة كل المتع المتاحة للنساء الغربيات المتحررات مثل السحاق وممارسة الجنس مع كل الرجال وتناول المخدرات ... وقد تجلى ذلك بوضوح من خلال اشمئزاز سوسن عبد الله من السحاقيتين نيكول وسوزي " رقصت سوزي ونيكول في البداية ثم طلبت مني سوزي رقصة، لم أتحمس لكنها سحبنتني تحولت الموسيقى من الصخب إلى الهدوء، وتعانق الجميع في الحلبة واحتضنتني سوزي وضغطت على ظهري، حتى كادت تغرس أظافرها في لحمي تأوهت ألقط برأسها على كتفي وقبلت رقبتني .

انسابت تتسلق عنقي، حتى اقتربت من شفتي انسحبت عدت إلى مكاني وظلت رائحتها في أنفي. سكبت قطرات من الويسكي في كفي، وغسلت وجهي المشتعل أصبحت ضحكاتهم وعربداتهم حبالا غليطا يخنقني " (مختار، 66:2005، 67).

تتغير نظرة سوسن في بون للحياة، فالسذاجة التي جاءت بها إلى الغرب تتراجع، فشوقها ولهفتها لعوالم الغرب المتحرر تضعف، وعشقها للمتعة الجسدية والجنسية تزول، لم تستطع سوسن الانجراف في تيار الحضارة الغربية، وقد تجلى ذلك عندما أراد شاب فرنسي أشقر معاشرتها، ترفض سوسن ذلك لتقع في حالة هستيرية من الضحك جعلت ذلك الشاب الفرنسي يخجل من نفسه. تقول سوسن: " عاد مسرعا سحبني إلى السرير واقترب يقبلني حاولت أن أمسك بإحدى شفتيه فلم أفلح، وكانت قبلة باردة برائحة النبيذ... نظرت إليه كان كثير البياض وأحسست كأنه امرأة إلى جانبي. لم يكن هناك اختلاف بيني وبينه في الرقة والبياض والنعومة.

لماذا لم تتعري؟

لا أرغب في ذلك.

جلس على حافة السرير عاريا أحمر، مطأطئا وهمس:

أنا أسف جدا " (مختار، 44:2005).

أرادت سوسن أن تطلق العنان لجسدها ليخوض بنفسه كل تجارب المتعة إلا أننا نجدها في مدينة بون " تجنب نفسها وبدون وصاية من الذكر، الكثير من الممارسات الجسدية التي تبدو جذابة في ظل التحريم، وبهذا المعنى يمكن القول إن عفة المرأة تتحقق فعلا حين تنأى المرأة بنفسها عما يشينها،

وليس حين توضع في قمقم مغلق بعيدا عن تجارب الحياة والاختيارات الحرة للإنسان (أبو نضال)،
2004: 105).

3- المرأة المتمردة والرغبة الشبقية للجسد

يمثل الجسد عند آمال مختار منطلق الكينونة إذ لا تستقيم الحياة إلا عن طريق هذا الجسد، فقد رسمت من خلال جغرافيتها فضاء رحبا لتأثيث سردها، حيث تستوقفنا بمشاهدتها السردية التي لا تخرج عن حدود المرأة الجسد حيث الشهوة وحيث الشبقية المسترسلة " ...كعاشقة تمشي في ضباب النشوة ... كصوفي في حضرة الإله، دخلت المقهى، كنت كمن يبحث عن عمره الضائع وعلى عمره الضائع، وعلى حافة الضياع التقينا منذ متى لم أتجمل وكنت أتجمل كل يوم ؟... منذ متى لم أر الكحل في عيني؟ ... منذ متى لم أتردد في اختيار عطري وألواني؟.. منذ زمن .. كم عمره؟ ... لا أدري .. أذكر فقط أنه مر زمن، لم أر وجهي في المرأة.

قبل أن يجيء انتظرتة، وكنت أكره الانتظار، لكن انتظاره متعة أخرى وكانت ثقتي بقدومه تعتق متعتي، لحظات كان فيها كل من حولي أشباحا، وكنت داخل شرنقتي أشد لهفتي حتى لا تفر وتربكني " (مختار، 2005: 27، 28). ضحكت، قهقهت انتبه وسأل بصوت مترجع.

كما ترى سوسن عبد الله أنه من حق هذا الجسد أن يتذوق كل أنواع اللذة التي يستحقها، ولن يتحقق ذلك بالنسبة إليها إلا عن طريق الهجرة إلى الغرب (بون) حيث توجد الحرية الكاملة، وقد كانت تغمرها أحلام الهروب إلى أرض الأحلام خاصة حينما ترى جسدها عاريا أمام المرأة قائلة: "وقفت عارية أمام المرأة فكرت أن أعيد رسم شفتي ثم عدلت بقلم الشفاه تتبعت خطوط جسدي على المرأة ورسمته.

تطلعت إلى الرسم، أحسست بشيء يدب في قلبي كأني رأيت إبراهيم يطل منه، كأني رأيت يقف فيه، يتبخر يتمدد ويضحك.
مسحته

جلست على حافة السرير، جميلة كانت فوضى اللون الرمادي يلطخ المرأة.
الليلة سأعتقك منه، الليلة سأعيد لك الحرية، سأفتح لك القفص فأطلق جناحك في فضاء الحرية،
وأصبح فيه كما تشاء" (مختار، 2005: 08، 09).

لقد عت سوسن عبد الله أن شرط تحقيق ذاتها ووجودها لا يكون إلا عن طريق الجسد، وأن اللذة "تروض هذه الطاقة، فقد رسمت احتفالية خاصة بالجسد، وفننت طقوس عشقه، ويبدو ذلك من خلال المداومة على أن تنظر في المرأة (Le recours au miroir) فتطمئن لبقاء جمالها فتتجمل وتتملى جسدها بلذة راسمة تفاصيلها بأحمر الشفاه، فكأنها تصبح الآخر بالنسبة إليها، وتنشطر إلى ذاتين، لتتلفي هذا التعارض بين أنا لذة / أنا واقع (Moi plaisir / Mpi réalité)" (فعاليات منتدى الروائيين العرب، 2005: 65).

تعيش سوسن في حالة من الشبقية الحيوانية، ويتجلى ذلك من خلال ثورتها على القانون البشري الذي يقتضي ستر العورات، فصفة العراء خاصية الحيوان الذي لا يحكمه أي قانون أو قيد، لذا فهي تريد

أن تعيش كالعصفور الطليق الذي يطير إلى حيث يشاء قائلة: " آه نسيت احترام قانون البشر، نسيت أن أستر جسدي اللغم.

ترددت، لكن لا يهم ليذهب قانونهم إلى الجحيم! عارية! العراء حرية، انطلاق إلى هناك بلا أشلاء تعطل نشوة الانفلات." (مختار، 2005:13).

لقد جمعت سوسن حريتها بالحرية الجنسية والعري وذلك من خلال ممارسة مشروع حريتها الجنسي كما تشاء ومع من تشاء.

إن سوسن عبد الله يسكنها " نارسييس ولكنها لم تعشق ذاتها إلى الموت، وإنما احتفت بالانا عبر التمتع بالجسد، فلم تكن لديها عقدة تدمير الذات، بل إنها تنشد السعادة الكبرى" (فعاليات مندى الروائيين العرب، 2005 م ص 64).

كما نجد سوسن عبد الله تثور على وهم الحضارة والثقافة وتتمنى العودة إلى الطبيعة إلى حياة الإنسان البدائي الأول حيث البساطة والأمان والاطمئنان. تقول: " كان يجب أن أكتشف العالم على ظهر السفر والصدفة بحثاً عن ذلك الشبه بيني وبينه: الإنسان أينما كان يجب أن أتسكع، أنا على بلاط المحطات والأرصفة أن أتعرف إلى أناس عابرين في زمن عابر، كان يجب أن أعربد، أن أرتطم بوهم الحضارة، أن أكتشف حقيقة الإنسان، طبيعته التي تخفت تحت أشلاء الملابس والقانون" (مختار، 2005:17).

تجسد سوسن عبد الله صور انعقاد الجسد وتوقه إلى الاكتمال عن طريق عنفوان اللذة وألق المتعة، مما يمثل علامة تحول في وضع المرأة في المجتمع العربي الذي لا تزال تحكمه العادات والتقاليد والأعراف (بوشوشة، 2009: 65).

إن توظيف الجسد عند آمال مختار يأخذ طريقة أقرب إلى المباشرة والحسية، حيث تستبد به الواقعية في صياغة المشهد، ففقد الجسد خلالها شحنته الدلالية، وضاعت رموزه الدالة، جراء سعي الكاتبة إلى الالتقاط المباشر لتلك الفاعلية المشهدية البصرية التي تجعل التوظيف الجسدي مادياً يفقد سخونته وفتنته؛ كونه يجهر ويعلن ولا يخفي، لذا كانت أغلب النصوص الإبداعية لآمال مختار إبلاغية إخبارية أكثر منها بلاغية إشارية.

4- المرأة وفشل تجربة التمرد

لم تستطع سوسن عبد الله تجاوز سلبيات الواقع وتناقضاته، فقد وجدت نفسها في مدينة بون تائهة بلا هدف وهذا ما جعلها تعيش في غموض وحيرة وكآبة على الرغم من تواجد كل " متع الجسد كاملة أمامها هناك فلماذا لا تغرف ما تشاء من المتع المباحة والحررة؟ ذلك لأنها ببساطة حملت " الهنا " إلى " الهناك " لهذا فحين يتاح للمرأة العربية قسط من الحرية، بل إنها لا تعود تطيقها، ذلك لأنها لم تترابط مع التطور الاجتماعي الشامل " (العبد اللات، 2017:134) الذي يجعل المرأة تمارس حريتها دون أزمات " فتعاني المرأة هنا من أوجاع الانسلاخ عن ماض لم يقدم لها الحاضر أي بديل حضاري إنساني حقيقي يمكن الإنسان من الانتماء إليه والتكيف معه" (عفيف، 2009م: 122).

إن التجربة التي خاضتها سوسن في بلاد الغربية "بون" جعلتها تستيقظ من أحلامها لتكتشف أن الإنسان يبقى إنساناً حيثما ذهب ورحل ، فليس تغيير المكان هو الذي يعطي للإنسان سعادته " تأكدت الآن من بقاء الحيوان ساكناً في الإنسان رغم قناعات الثقافة والحضارة، إبراهيم، صدقني، الحيوان ما يزال بريئاً وجميلاً وطبيعياً ومفترساً... "(مختار، 2005: 104)، فبعد هذه الرحلة التي قضتها في ديار الغربية "بون" لم تعد تهمها مغريات الحياة ، كما أنها أصبحت لا تؤمن بفكرة اختلاف الحضارة الشرقية عن الحضارة الغربية ، وأن هذه الأخيرة مصدر لعيش الحرية المطلقة، وما هذا الاختلاف إلا هاجس يتلبسنا بأن الغرب العالم الخيالي والمثالي الذي يستطيع الإنسان أن يعيش فيه كل ملذات الحياة قائله: " لم يعد هناك غموض يغريني، لم يعد هناك اختلاف يلفتني ، لم يعد هناك فعل يثيرني، أصبحت أرتكب الفعل كما أتفق . ولم يعد يعنيني الوجود"(مختار، 2005:110).

فمن حيث أرادت سوسن تحقيق ذاتها وأحلامها تلاشت هذه الذات وفنيت وفقدت إحساسها بالوجود والحياة، وحتى شعورها بلذة الحرية زال ومات، فقد اكتشفت أن التجربة التي عاشتها في ديار الغربية محض وهم، حصيلته في الأخير كانت الكآبة والاعتراب، وأن من الصعوبة تجاوز الذات لهويتها ودينها ومجتمعها وعائلتها، فالبحث عن الحرية وتحقيقها لا يبدأ من الآخر ومن ثقافته، وإنما من فهم الذات لما تريده وتسعى لتحقيقه (العبد اللات:2017، 134).

تصل سوسن في بلاد الغربية إلى نتيجة مفادها أن الحرية المطلقة التي كانت تسعى إلى تحقيقها في بون ما هي إلا وهم يعيشه الإنسان الشرقي، وما إن يصل هذا الشرقي الحالم إلى الحضارة الغربية سرعان ما تتبدد أحلامه حول الأوهام التي بناها وشيدها، فيرى أن تفكيره كان عبثياً إلى حد السذاجة. تقول سوسن: " حتى هنا في بون حيث اعتقدت أن الحرية كاملة، اكتشفت أن الأمر ليس كذلك، وبدأت أشك في وجود الحرية كاملة "(مختار، 2005:74).

تنتهي أحلام سوسن عبد الله بعد أن وجدت المكان الذي حلمت به مكاناً تملأه الوحشة والوحدة والغربة القاتلة قائله: " تنهبت إلى وحدتي في الحانة فضحكت وقهقهت. وحيدة منذ جئت إلى الوجود وسأظل وحيدة حتى الرحيل. لا شيء هناك بين الولادة والموت غير الوحدة. أضحك وأدعي الآخر ذلك، فجأة اكتشف أنني أفعل ذلك وحيدة "(مختار، 2005:104).

إن وقوف الذات المغتربة أمام الحضارة العربية هو في حقيقته وقوف " أمام الاختلاف ومواجهة المغايرة – هو موقف كثيراً ما تتكبد فيه الذات وهو ما لا تملكه... وهي وقفة سرعان ما تتلبس بالرحيل فتصير انطلاقة نحو المختلف أملاً في الوصول إلى الكمال الذي لا يتحقق طبعاً، فلا يتبقى سوى آثار الرحيل إليه "(سعد البازغي، 1999: 12).

بعد تحطم طموحها، تحنّ سوسن عبد الله إلى ذكريات الوطن خاصة إلى حبيبها إبراهيم الذي قضت معه أجمل وألذ لحظات حياتها، وعلى الرغم من توفر كل المتع، إلا أنها ترفضها وتشمئز منها، كما أنها احتقرت نساء الغرب المتحررات خاصة السحاقيات، ويحق لنا في هذا الصدد أن نتساءل: ما سبب رفض سوسن لهذه المتع؟ ولماذا اشمأزت منها على الرغم من أنها هاجرت لأجلها؟ الإجابة ستكون من العمل نفسه.

لقد كانت سوسن عبد الله تحلم بممارسة كل المتع الجسدية والجنسية في وطنها الأم (تونس)، هذه الأحلام حاولت تجسيدها في ديار الغربية إلا أنها لم تستطع بشروط ذلك، فقد حاولت الهروب من "أناها الاجتماعية الواعية لكي تطلق حرية أناها الداخلية المكبوتة والمقموعة "هنا" فتبيح إلى المرأة الأخرى فيها... التي تحبها وتخافها فرصة أن تمارس رغباتها، فتركض وراء متعها، ولكنها لا تستطيع كسر قيود الكائن الموجود فيها فيصير الشوق أكبر" (أبو نضال، 2004 : 103) فهذه كل متع الجسد موجودة أمامها، إلا أنها ترفضها وتشمئز منها وهذا ببساطة لأنها حملت الهنا إلى هناك .

إن سوسن عبد الله لم تستطع نسيان ماضيها وهويتها، فقد بقيت الهوية العربية حاضرة فيها وفي كيانها، لم تستطع الانسلاخ، وهذا بالفعل ما جسدهت آمال مختار على عتبة الرواية

" كنت بلا فكرة بلا سأم

أركض وراء متعة

هاربة هاربة

صار الشوق أكبر"(مختار، 2005:110).

تكمّن متعة النص الإبداعي في نص " نخب الحياة " بأن الرواية تقوم على أحداث بسيطة تقع في بون، إلا أن الذكريات والتداعيات تتداعى من خلالها لتكشف عما يختزنه وجدان البطلة من مواقف وأحاسيس وقراءات مقارنة للمشاهد والوقائع، فكل موقف يفضي إلى ما يشبهه أو يذكر به كنعقوض له (أبو نضال، 2004: 106)، مما يسهم في إضاءة أحاسيس الحنين التي كانت تسيطر على سوسن عبد الله منذ رحيلها إلى بون، وأكبر حنين كانت تعيشه سوسن عبد الله هو حنينها لحبيبها إبراهيم. كما يحضر الحنين إلى الوطن عبر شخصية النادل المغربي عبد اللطيف، هذا الأخير الذي كان خير رفيق لسوسن في بون ، و هو من أمّن لها عملا في المقهى حيث يعمل، لقد كان كثيرا ما يحن لوطنه المغرب وقد عبر لسوسن عن مدى شوقه لوطنه(المغرب). تقول سوسن: "كان عبد اللطيف يضع رأسه على ركبتي كان يبكي بلهجته المغربية، حدثني عن هروبه من المغرب. قال إن بطش أخيه الأكبر جعله يكره المغرب ، ثم حدثني عن عذابه في فرنسا وتشرده بلا أوراق بلا عمل ، حتى وصوله إلى بون وتزوجه من ألمانية أحبته فرتبت له وضعية الإقامة والعمل، ثم تركته بعد مدة لتعيش مع رجل آخر.

كان يجهد بكاء في لحظة تداعيه قائلا:

- رائحتك عربية، رائحتك أكدت لي أنني لن أنسى ولن أنسى من أنا، أثرت في الشوق إلى طنجة وأمي وفوزية"(مختار، 2005:71).

وتأتي لحظة الاستفاقة من غيبوبة اللاوعي التي كانت تعيشها سوسن، لتقرر في الأخير الرجوع إلى ديار الوطن

وقبل الرحيل تقيم سهرة تونسية بالفندق احتفالا بقرار الرحيل قائلة: "أيها الأصدقاء الغرباء لقد جمعتنا الصدفة في هذا الفندق لتلتقي عيوننا ولتظل وجوهنا في الذاكرة..."

إذن لنحاول منذ الآن أن نتصرف بوعينا لا بوعي الصدفة...

أصدقائي! لنحتفل بهذا اللقاء الغريب، ولنشرب نخب الحياة، ولنرقص من أجل الحب ثم ألا توافقون أن الحب مأساة الحياة؟

أصدقائي لتكن سهرتنا هذه حتى الصباح ودونوا في الذاكرة أنها سهرة تونسية. تعالت الضجة وامتلات الحانة بالتصفيق وتناثر اسم تونس بلكنات مختلفة " (مختار، 2005: 80، 81) تحاول سوسن من خلال هذه الحفلة إعلان فرحتها برجوعها إلى وعيها، هذا الوعي الذي غاب عنها طويلا، وإقرارها بحفله تونسية هو إقرار باعتزازها بوطنها وبهويتها وافتخار بانتمائها. في آخر المطاف تقرر سوسن عبد الله الرجوع إلى ديار الوطن محاولة جمع أشلاء روحها وذكرياتها ووحدتها " وحيدة منذ جئت إلى الوجود وسأظل وحيدة حتى الرحيل ... وفي النهاية أبكي وحيدة وأحزن وحيدة وأفرح وحيدة، ولا أحد يقدر على مشاركتي، أما إذا حاول، سيدعي ولن يبلغ مداي. وهل أقدر أنا أن أشارك الآخر ومن "أحب" أبي وأمي، إخوتي، شيراز، إبراهيم ... جمعت أشلائي روحي ذاكرتي ووحدتي وذهبت أبحث عن مكتب للطيران " (مختار، 2005: 104، 105) من أجل اقتناء تذكرة السعادة، التي تأخذها إلى أرض الأحبة " حلقت الطائرة في سماء تونس حامت فوق قرطاج" (مختار: 2005: 105).

وتتبعت حدود الأرض والبحر بعد رحلة وجودية خاضتها في ديار الغربة بحثا عن وهم الحرية الكاملة.

خاتمة ونتائج الدراسة

من خلال قراءتنا للرواية رأينا أن آمال مختار تسعى من خلال هذا العمل الروائي الجريء في طرح إلى تحقيق الرغبة والبحث عن الحب والحياة في داخل كل امرأة، وهذا ما تسعى إليه بطلة الرواية سوسن عبد الله الفتاة الشرقية التي سعت إلى التمرد والتحرر خارج أسوار الوطن لتجسد صورة انعتاق الجسد وتوقه إلى الاكتمال عن طريق عنفوان اللذة وألق المتعة، مما يمثل علامة تحول في وضع المرأة في المجتمع العربي، وقد خلقت هذه الرواية ثورة على المحكي النمطي لتفرض على القارئ استعدادا قرائيا وتلقيا نقديا جديدا.

وفي ختام هذه الدراسة يمكن أن نستشف أهم النتائج المتوصل إليها من خلال تحليل رواية "نخب الحياة" لآمال مختار فيما يلي:

- إن الكثير من النساء العربيات يربطن بوعي أو بلا وعي بين مفهوم الحرية بمعناه الإنساني ومفهوم الحرية بمعناه الجنسي، وهذا الخلل يكمن في عدم نضج وعي المرأة الباحثة عن حريتها.
- تحاول سوسن عبد الله أن تتمرد على عالم القيود، فلا تجد ما تعبر به عن تمردا سوى جسدها؛ لذا تمارس حريتها من خلاله، فتحاول جاهدة عتق جسدها حيث سعت جاهدة إلى الرحيل نحو ديار الغربية حيث تكون الحرية مطلقة والرقابة غائبة، ولكن في حقيقة الأمر ينم هذا التفكير عن سذاجتها ودليل واضح على قصور وعيها، فلا تستدرك سذاجتها وقصورها إلا بعد أن تعيش وهم الحرية المطلقة في الغرب.
- لقد رأت سوسن عبد الله أن الرحيل إلى الغرب هو الخلاص والملاذ الآمن الذي تستطيع فيه تحقيق آمالها وطموحاتها، ولكن سرعان ما تتغير هذه النظرة بعد المعاشية والتجربة لتصطدم بخيبة الأمل، ولتقتنع في الأخير أن الغرب ليس فضاء الخلاص والحرية المنشودة كما كانت تعتقد.

قائمة المصادر والمراجع

- البازغي سعد، (1999م)، مقارنة الآخر مقارنات أدبية، ط1، دار الشروق، القاهرة، مصر.
- بوشوشة بن جمعة، (1999م)، اتجاهات الرواية في المغرب العربي، ط1، دار المغربية للطباعة والنشر والإشهار، تونس.
- بوشوشة بن جمعة، (2003م)، الرواية النسائية المغربية، ط1، دار المغربية للطباعة والنشر والإشهار، تونس.
- خالد العبد اللات سهى، (2017 م)، شخصية المرأة في الرواية النسوية الأردنية في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، ط1، دار فضاءات للنشر والتوزيع، عمان، الأردن.
- بن السايح الأخضر، (2011م)، سرد الجسد وغواية اللغة في حركية السرد الأنثوي وتجربة المعنى، ط1، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن.
- دراج فيصل وآخرون، (1999م)، أفق التحولات في الرواية العربية، ط1، (دراسات وشهادات المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع)، بيروت.
- السعداوي نوال، (د، ت)، المرأة والدين والأخلاق، ط1، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان.
- طوطح غدير رضوان، (200 م)، المرأة في روايات سحر خليفة، رسالة ماجستير، جامعة بينزيت، كانون الثاني.
- عفيف فراج، (2009م)، المرأة بين الفكر والإبداع، ط1، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.
- مختار أمال، (2005م)، نخب الحياة، ط2، دار سحر للنشر والتوزيع، تونس.
- مناصرة حسين، (2007م)، النسوية في الثقافة والإبداع، ط1، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، الأردن.
- أبو نضال نزيه، (2004 م)، تمرد الأنثى في رواية المرأة العربية وبيبلوغرافيا الرواية النسوية العربية (1885م – 2004 م)، ط1، المؤسسة العربية للنشر، بيروت، دار الفارس للنشر والتوزيع، الأردن.
- الصائغ وجدان، (2008م)، شهرزاد وغواية السرد قراءة في القصة والرواية الأنثوية، ط1، الدار العربية للعلوم، بيروت، لبنان.
- صورة المرأة في الرواية العربية، (2005 م) فعاليات منتدى الروائيين العرب، ط1، دار سحر للنشر والتوزيع، تونس.